أورهان پاموك:

مدخل إلى نظريةٍ حقيقيةٍ في المؤامرة والپارانويا

. ترجمه عن التركية: بكر صدقي .

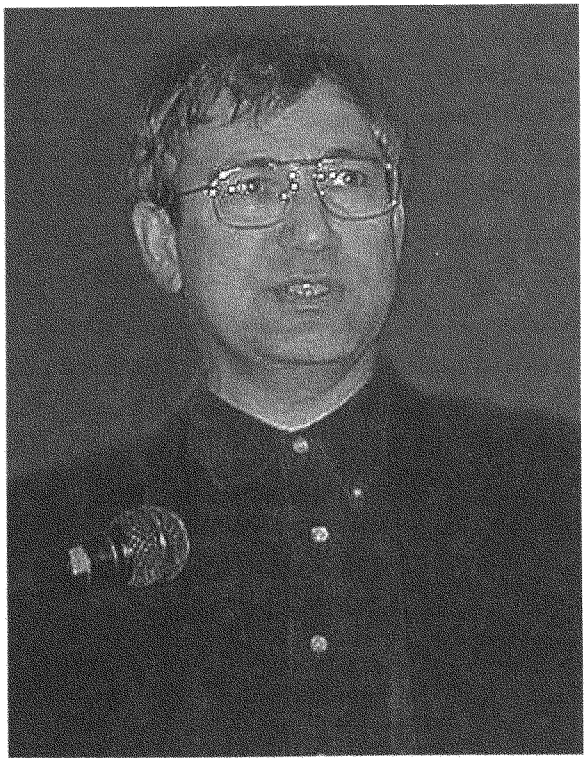

يعود هذا النصّ إلى ما قبل العام ١٩٩٩، لكنه يحتفظ بنضارته نظراً لأنّه يتناول نظريةَ المؤامرة التي تقدِّم العزاءَ للوعي القاصر إذ «تفسِّر» سببَ شقائه تفسيراً يؤمِّن ديمومةَ سيطرةِ القوة المتحكِّمة بمصيره ـ التي هي سببُ كلِّ شقائه.

والكاتب التركي أورهان پاموك أصبح معروفاً للقارئ العربي في السنوات القليلة الماضية بعد ترجمة عددٍ من رواياته: اسمي الأحمر، والحياة الجديدة، والكتاب الأسود، والقلعة البيضاء، والبيت الصامت، وثلج، وطبعاً بعد فوزه مؤخّراً بجائزة نوبل للآداب (٢٠٠٦). والنص المترجم هنا مأخوذ من كتابٍ جَمَعَ فيه مقالاته الصحفيةَ والحواراتِ التي أُجريتْ معه، وصَدَرَ في العام ١٩٩٩ بعنوان: الألوان الأخرى.

يحاكَمُ پاموك في تركيا اليومَ بسبب تصريحاتٍ أدْلى بها إلى صحيفة سويسرية قبل أكثر من عام، تعرّض فيها للمجازر التي ارتكبها الجيشُ التركيُّ بحق الأرمن والأكراد، ويواجهُ الاتهامَ بتحقير هيبة الدولة التركية. وقد شَهِدت الجلسةُ الأولى للمحاكمة، التي انعقدتْ في أواخر العام ٢٠٠٥، اعتداءً على الكاتب من قِبَلِ قوميين متطرفين تظاهروا أمام المحكمة.

المترجم

مثلما يتوافق التضادُ بين الشرق والغرب مع الهوية المزدوجة لروحي، كذلك هي مسألةُ المؤامرة: فهي، في الوقت نفسه، حالةٌ روحيةٌ تستغرق بلادنا بأسرها؛ وإحساسٌ قويٌّ أعتقدُ بسذاجةٍ أنّني أعيشُه وحدي كفرد.

فَلأبدأْ أولاً بنفسي وأعبّرْ عن شكوكي ومخاوفي وأوهامي وأوهامي المتحققة. لعلّ الأمر يعود إلى أنني أعيش حياتي بهذا الشكل، أيْ بانقطاع عن الحياة طوال أربع وعشرين سنةً ـ كما يقول بعضُ منتقديَّ باستمتاع. فأنا أحيا وحدي، وأعمل في أماكن شبيهةٍ بهذا المكتب، ولا أعمل ضمن منظّمة من الأفراد في مكان واحد. لطالما كانت الحياةُ بالنسبة إليّ شيئًا يفعله الناسُ بعيدًا عني. ربما هذا هو السبب في أنّني أَشْعر، من حين إلى آخر، بأنّ هؤلاء الناس قد تواطأوا سرّاً على أن يقوموا بعملٍ ما موجَّهٍ ضدّي.

أحببتُ فيلم «ترومان شو» كثيرًا؛ ومع أنّني كاتبٌ، فقد شعرتُ بقربي من «جيم كاري،» بطل الفيلم، أكثرَ من قربي من المؤلِّف الذي تخيَّلَ عالمَ ترومان. ولأقلْها بصراحة: يستيقظ عندي الوهمُ بأنّني ذكيٌ من حين إلى آخر، وأعتقد أنّ البارانويا والذكاء أخوان شقيقان. يَعْرف الرجلُ العاقلُ أنّه يتخيّل بصورةٍ متواصلةٍ وجودَ مؤامراتٍ تحاك ضدّه، في حين أنّ الرجل البارانوئي لا يَعْرف أنّ تفكيره ينتمي إلى نسقٍ پارانوئي. وفي رأيي أنّ الذكاء الحقيقي، الخلاّق، المتوازنَ بوساطة العقل، يَحْتمل البارانويا بجرعات مرتفعة. لكنّ المشكلة تَكْمن في انفلات البارانويا خارج حدود الضبط، وفي جهل المرء ببارانوئيته. ومن وجهة النظر هذه، فأنا مغرمٌ بالقول التالي، لأنّه يلائم حالتي الخاصة كثيرًا: «كوني بارانوئيّاً لا يعني أنّ أحدًا لا يطاردني.» هذا ما أقوله لنفسي باستمرار. ومن جهة أخرى فأنا، من منظوري الفكري، أقع على الطرف النقيض من موقف الشخصِ المدمنِ فكرةَ المؤامرة.

أما البارانويا الشائعةُ في مجتمعنا بكثافة، والمتّسمةُ بالسذاجةِ والبدائيةِ والفظاظةِ والجهل، فأنا أستخفّ بها لأنّها تفتقر إلى الذكاء. كيف؟ ها هي كتبي. ثمة أناسٌ من هذا النوع في رواياتيَّ، **بيت الصمت والحياة الجديدة**، كذلك هو اليساري السابق في **الكتاب الأسود**. أنا أتحدّث عن البارانويا التي يَنْطوي عليها كلامٌ من نوع: «لقد اتّفق كلينتون ويلتسين على تقسيم تركيا، بمساعدةِ كلٍّ من البابا يوحنا بولص الثاني ورئيس وزراء إيطاليا.» كنتُ أكتبُ مثلَ هذه الأشياء في رواياتي من باب السخرية، ويَكْتبها الآن كتّابُ زوايا الرأي في الصحف التركية بمنتهى الجدّيّة. وعلى كل حال فقد طَلَبَ «أبو» [عبد الله أوج آلان] مقابلةَ بابا الفاتيكان فعلاً ..

❖ ❖ ❖

تتمتّع ثقافةُ البارانويا في بلادنا بغنًى استثنائيّ، لكنّها ليست من النوع الذكي المرهف، بل من ذلك النوع الفظّ والبدائي والجاهل. معاهدة سيڤر، أو آخرُ المؤامرات الأميركية ـ الإسرائيلية ضدّ الإسلام، هما من أكثر أشكال تلك البارانويا شعبيةً. ويشكّل منطقٌ من هذا النوع عائقًا في وجه التفكير المتوازن والعقلاني.

لقد أكّدتْ لي تجربتي الخاصة أنّ لأفكاري البارانوئية ما يبرِّرها فأولئك الناس قد تحدّثوا عنّي فعلاً فيما بينهم، كما سبق وخمّنتُ. وفي الأوقات التي تساءلتُ فيها عمّا إذا كان الأمرُ مجرّدَ مصادفة أمْ أنّني شخصٌ پارانوئي فعلاً، اتّضح لي أنّ الأمر لا يتعلّق بمصادفة. وفي الحالات المعاكسة تكون حدوسي مثيرةً للخجل بحيث يبدو لي أنّ الناس يتستّرون على الأمر ويُخْفونه عني. إنّ خشيتي وقلقي واضطرابي من أنّ الآخرين يَفْعلون شيئًا ضدي تتصل من جهة أخرى بالهواجس المتعلّقة بانعدام الثقة بالنفس، والتي كانت تنتابني أيامَ المدرسة الثانوية: «ترى هل انزلقتْ ربطةُ عنقي مجدّدًا من الوسط إلى اليمين أو اليسار؟ وهل يرى الجميعُ في هذه اللحظة نقصَ زرٍّ في بنطالي؟»

أريد أن أقول إنّه إذا كان الخوفُ من المؤامرة، في جانب منه، هو فنُّ إقامةِ علاقاتٍ سببيةٍ بصورة خلاّقة بين أشياء لا تَقْبل ذلك بسهولة، فهو يَنْبع، في جانب آخر منه، من عجز المرء عن رؤية نفسه بصورة سويّة. ففي هذه الحالة لديكم دائمًا نقطةُ ضعفٍ أو عري، وجميعُ الآخرين بطبيعة الحال مهتمون بذلك. هذا الوضع هو، في الوقت نفسه، أحدُ أسباب البارانويا الاجتماعية والسياسية أيضًا. والحال أنّ لدى تركيا على الدوام ما يعيب، بدءًا بالتضخُّم النقدي وممارسة التعذيب، وانتهاءً بمصادرة الكتب وعدمِ قبولها في عضوية الاتحاد الأوروبي (وغيرُها كثير). تُشْبه تركيا، بهذا المعنى، تلميذَ الثانوية الذي يسيطر عليه الخوفُ من مراقبة الآخرين الزرَّ الناقصَ في بنطاله، ومن سخريتهم منه. وهكذا تركِّز تركيا اهتمامَها على ما يقوله عنها الآخرون، بدلاً من أن تركِّب زرَ بنطالها الناقص أو تسوّي ربطةَ عنقها المائلة!

أنا، أو مَنْ يُشْبهونني، لا نستطيع أن نتصرّف بوقاحة القبضايات حينما نَشْعر بتفاقم پارانويانا، فنقول: «لِمَ تَنْظُر يا هذا! أفي بنطالي زرٌّ ناقص؟! فَلْيكنْ.» بدلاً من ذلك نَشْعر بالانسحاق والضآلة. أما في المجتمع التركي فإنّ پارانويا معاهدة سيڤر، أو البارانويا الاجتماعية، تتصرّفان بوقاحةٍ وتنمّرٍ قويّيْن. لطالما عجزتُ عن ممارسة هذا التنمّر، ولطالما أثار إعجابي وحسدي، فقلتُ: «كيف يَفْعلون هذا! مرحى لهم! يا لهم من رجال أقوياء!» ومن الممكن أن يتطور السلوكُ المذكورُ إلى عدوانيّة متمرجلةٍ، لسانُ حالها: «.. إيّاكَ! وإلاّ ضربتكَ!» بالطبع قائلُ هذا القول لن يَضْرب الغربيين أبدًا، بل يَقْصد المعارضةَ المسكينةَ في الداخل. أنا أفهم هؤلاء الناس لأنّهم پارانوئيون، لكنّي أخافهم أيضًا لأنّهم أغبياء

البارانوئي الغبي هو المخلوق الأكثر إثارةً للخوف، ويوجد منه الكثيرُ في بلادنا. وسببُ هذه الكثرة يعود في رأيي إلى التالي: إنّ الأشخاص الذين يصابون بالپارانويا ذاتها بصورة متقابلة يستمدّ الواحدُ منهم الدعمَ من پارانويا الآخر، فيزدادون غنًى. بل أكثر من ذلك: إنّهم، بفضل پارانوياتهم المتقابلة، يشكّلون جماعةً متماسكةً، فيتخلّصون بذلك من پارانوياهم، ولسانُ حالهم يقول: «كما ترَوْن فنحن نفكّر بالأشياء ذاتها حتى لو كنّا پارانوئيين!» بهذه الطريقة توحِّدهم تلك البارانويا، ويدركون أنهم أصدقاء فيما بينهم.

نظريات المؤامرة تساهم، وبصورة بدائية جداً، في حجب عيوب تركيا ونقاط ضعفها.

أما أنا فلم أتمكّنْ من بناء صداقاتٍ جيدة لأشارك آخرين في پارانوياي، وبالأخصّ في سنوات شبابي المبكّر حين كانت پارانوياتي كثيرةً إنّ طريقتي اليومَ في إشراك الآخرين في پارانوياتي تتمثّل، في طبيعة الحال، في كتابة الروايات. فأنا أكتب الروايات فأَعْرض على الملإ استشعاراتٍ من هذا النوع، والجوانبَ المتهدّلةَ من نفسي وبلاهاتي أو پارانوياتي الاجتماعية الأكثر تناسقًا ففي مطلع روايتي **اسمي الأحمر** نقرأ الجملةَ التالية: «إنّي أحذّركم من الآن ثمة مؤامرةٌ مقزِّزةٌ وراء موتي، تستهدف ديننا وتقاليدَنا ونظرتَنا إلى العالم.» هذه في الحقيقة نظرةٌ خاطئةٌ شكّلتْ محرِّضًا على الجرائم المذكورة في الرواية، ولم يتمّ تصويبُها في نهاية المطاف! إنّ پارانوياتنا تَمْنحنا نظريةً ذاتَ معنى أو بلا معنى، وتَدْفعنا في أحيانٍ كثيرة نحو عنفٍ غيرِ مبرَّر، أو حذرٍ غيرِ مبرَّر، أو انعدامِ حسٍّ جديرٍ بقطعة خشب. في رأيي أنّ نقصَ الديموقراطية في تركيا اليوم يَنْبع أساسًا من انعدام الثقة المفرط بين التيارات الإسلامية والتيارات التحديثية الراديكالية. فلأنّ كلا الفريقيْن پارانوئي، فإنّ أحدًا منهما لا يتخلّى عن أحلامه الراديكالية في مواجهة الآخر. والحداثويون الذين يحتلّون موقعَ السلطة يخرّبون الديموقراطيةَ بسبب خوفهم من الفريق الآخر. غير أنّه يَحْدث لي أن أفكّر أيضًا بأنّ ثمة نقاطًا عديدةً في مخاوفهم أشاركهم فيها بدوري

❖ ❖ ❖

ما الذي فعلتُه حتى حُلْتُ بين نظرياتي الخاصة عن المؤامرة ووصولِها إلى حالٍ مخرِّبةٍ لروحي، كما هي حالُ بلادي من خلال الظواهر المذكورة أعلاه؟

فعلتُ ذلك باللجوء إلى السخرية، وبنوعٍ من الثقة بالنفس، وبالثقافةِ، والقراءة. ففي رأيي أنّ الترياق الشافي ضد نظرية المؤامرة (مع أنّ هذه ضروريةٌ من أجل التفكير الحاذق) هو أن تَثِقَ بنفسك، وأن تَعْرف الأرضَ التي تطأُها، وأن تتعرّفَ على الآخرين؛ ذلك أنّنا لا نَشْرع في تخيُّل المؤامرات لمعرفتنا بما يفكّر به الآخرون، بل بسبب جهلنا ذلك. أما المعرفة، والثقافة بصورة عامة، فإنّهما تُبعدان المرءَ عن ضروب الپارانويا.

والواقع أنّ الفلسفة الغربية كلَّها، أعني الفلسفةَ المنظومية، هي شكلُ التعبير عن الپارانويا بوساطة المفاهيم تقول لنا الفلسفةُ المنظومية إنّ كل الأشياء تَصْدر في نهاية المطاف عن علّةٍ وحيدة، وإنّ كل الأشياء مترابطةٌ فيما بينها، وإنّ العالم يشكّل وحدةً يُمْكن تفسيرُها داخل تيارٍ متدفّقٍ واحد إنّها أفكار لا يُمْكن إلاّ شخصًا پارانوئيّاً شديدَ الذكاء أن يطوّرها وقد كنتُ في السابق أقرأ الفلسفة المنظومية بلا اقتناع، ولكنْ باهتمام.

أنا لا أؤْمن بالنظريات التي تفسِّر وتختزل كلَّ شيء بسببٍ وحيد. نظرتي إلى العالم براغماتيةٌ إلى أقصى الدرجات. ثمة أحداثٌ كثيرةٌ تَحْدث، أحاول فهمَها بوساطة النظرية بقْدرِ تمكُّني من الإمساك بها من طرفٍ ما. والنظرية التي أنحاز إليها، وكيفيةُ اشتغالها على الموضوع، موجودتان بقدْر ما تخدمانني بصورة معقولة. أما إذا آمنتم، كما فَعَلَ بطلُ رواية **الحياة الجديدة**، أو كما تظاهرتُ بذلك أحيانًا إبّان شبابي، بأنّ في وسعكم الإمساكَ بمفتاح العالم كلّه بوساطةِ فكرةٍ كبرى وحيدةٍ أو يوتوبيا كبرى وحيدةٍ، فإنّه من الممكن القول بأنّ لديكم ميولاً پارانوئيةً قوية. ذلك أنّ إيمانكم هذا يعني قبولَكم بأنّ للعالم منطقًا بسيطًا، وبأنّه مجموعةٌ من العناصر المترابطة.

لقد تخلّصتُ من أوهام شبابي هذه بقراءة الكتب أيضًا، الأمرُ الذي جعلني أختلف عن بطل **الحياة الجديدة**. أما المؤامرة في **اسمي الأحمر** فهي مخاوفُ مجتمعٍ مغلقٍ بالقياس إلى مجتمع اليوم، ولكنْ من الممكن مقارنةُ انغلاقه بحياتنا المعاصرة ـ أعني تلك المخاوفَ التي تنتابني هنا بصورة مكثّفة. «نحن نمارس فنّاً محظورًا بعضَ الشيء. ترى ما الذي سيقوله الناسُ في ذلك؟» المؤامرة في **اسمي الأحمر** نابعةٌ من هذا الخوف وهذا التوجّس من ممارسةِ عملٍ شيطانيٍّ بعضَ الشيء، وفنٍّ محظورٍ بعضَ الشيء. يتعلّق الأمر بتغيّر التقليد؛ ذلك أنّ التغيرَ والتحديثَ يثيران إحساسًا بالمؤامرة. يدور الحديثُ عن أفكار پارانوئية من نوع: «الغرب هو الذي نَصَّب أتاتورك فوق رؤوسنا، مستهدِفًا إعدامَ ذاكرتنا، وتدميرَها، واقتلاعَنا من جذورنا... إنّ الانقلاب اللغوي، المتمثِّلَ في الانتقال إلى الحرف اللاتيني، هو مؤامرةٌ غربيةٌ هدفُها فصلُنا عن ماضينا.»

ثمة پارانوياتٌ معاكسةٌ أيضًا تتصوّر أنّ دينَ البلاد وميولَه السياسية، النابعةَ من ثقافة البلاد الأصلية، إنما تغذّيها وكالةُ الاستخبارات الأميركية، أو الأجانبُ عمومًا ولعلّ هذا قد حدث فعلاً في أوقات معينة. ونجد هذا النمطَ من التفكير في جميع المجتمعات.

❖ ❖ ❖

على أنّه يجب ألاّ ننسى أنّ هذا التفكير لا ينبثق من الأرض التي نعيش فوقها ففي الدولة البيزنطية أيضًا كان الناسُ يتصارعون من أجل الفِرَقِ الرياضية، أو بسبب الأزياء التي يرتدونها. في كلّ مرحلة تاريخية، وفي كلّ الأزمنة، كان ثمة شيءٌ پارانوئي عند البشر. ولكنْ في الديموقراطيات الغربية المتطورة اليوم يلقى التفكيرُ الپارانوئي طلبًا اجتماعيّاً أقلّ قياسًا إلى المجتمعات الشبيهة بنا وحتى إذا لاقى هناك بعضَ الطلب الاجتماعي فإنه لا يتمتع بالتأثير، [إذ] يَمْنعه من ذلك نمطُ التنظيم الاجتماعي غير المؤاتي.

بالطبع ثمة پارانويا في الغرب، وبأكثر أشكالها انحطاطًا وبؤسًا ـ بدءًا بأفكار المؤامرة وانتهاءً بالمذاهب المنغلقة ـ ولكنْ لا يتم نشرُ تلك السخافات باعتبارها أفكارًا رصينةً في الجريدة الأكثر رصانةً والأوسع انتشارًا في البلاد على أنّها أحدثُ أفكار رئيس تحريرها إنّ هذياناتٍ من قبيل «أنّ جميع أمم الأرض معاديةٌ لنا،» أو «أنّ أميركا وإيطاليا قد اتفقتا على تقسيم تركيا وتريدان تدميرنا،» سوف تلقى قبولاً أقلَّ في المجتمعات الغربية أما في تركيا فإنّ معرفةَ أنّ القوى الخارجية لا شاغلَ لها سوى التخطيط لإيقاع الشرور بنا لهي بمثابة التعليم التأسيسي!

وهكذا يتواتر علينا كثيرًا وجوبُ أن نتمسّكَ برايتِنا وسلطانِنا ورئيسِ جمهوريتنا وديننا. في المدارس الابتدائية يتمّ تعليمُ الخوف من الغرباء، والمختلفين، ومن كلّ شيء. فيتعلّم التلاميذُ كيف يصبحون مواطنين صالحين وقوميين شديدي التمسك بقوميتهم. إنّ مُشْعلي النار في الأعلام، والأبطالَ المهووسين بالاغتيالات، يَبْرزون من بين هؤلاء التلاميذ الجيدين.

كنّا قديمًا مجتمعًا أكثرَ انغلاقًا: لا سياحة ولا أجانب أعتقد أنه كانت هناك پارانوياتٌ بصدد الأجانب في ذلك الزمن، لكنّ تركيا لم تكن تعاني مشكلاتٍ دوليةً كبيرة. في رأيي أنّ نظريات المؤامرة الدولية خاصةً تزداد باطّراد مع انحطاط مكانة تركيا في الحسابات الدولية، ومع تصاعدٍ مقابلٍ للنزعة القومية. فلأُعطِكم مثلاً

ميلوراد باڤيتش كاتبٌ صربي أكنُّ له الاحترام، صَدَرَ له كتابٌ تُرجم إلى التركية؛ إنّه روايةٌ خلاّقةٌ تهتمّ بأحلام اليهود والأرثوذكس والمسلمين وپارانوياتهم. ولكنْ عندما تفكّكتْ يوغوسلافيا، أصبح باڤيتش نفسه پارانوئيّاً أرثوذكسيّاً، وانضمّ إلى منظّري سياسة التطهير العرقي الصربية الموجَّهة ضد مسلمي البوسنة. ما كنتُ قرأتُه في روايته من سخريةٍ من العقلية التآمرية، أصبح ينطبق عليه بكلّ جديّة! فقد أخذ يقول: «لقد اتّحد الكاثوليكُ (البندقية) والمسلمون (استانبول) على مدى قرون وذبحونا 'نحن' الأرثوذكس» ـ وثمة حقيقةٌ جزئيةٌ في هذا القول ـ الشيء الذي تعامَلَ معه باڤيتش باعتباره لعبةً أدبيةً ظريفةً، حَمَله على محمل الجدّ بعد ستّ سنوات على نشر روايته حين تفكّكتْ يوغوسلافيا واندلعتْ حربُ البوسنة وأصبح هو قوميّاً صربيّاً.

ذكرتُ هذا المثال لأقول ما يلي: أنا لا أَشْعر بالخجل من وجودِ عقلٍ تآمريّ في داخلي، لأنّني أعرف أنّهم أنشأوني على ذلك، وأنّني استطعتُ الوصولَ إلى توازنٍ بوساطةِ عقلانيةٍ نابعةٍ من أعماقي. وأعتقد أنّ هذا الأمر هو مصدرُ غنًى لشخصيتي. من جهة أخرى أدرك أيضًا أنّ في بلادي الكثيرَ من نظريات المؤامرة ما أنتقده هو أنّ نظريات المؤامرة تساهم، وبصورة بدائية جدّاً، في حجب عيوب تركيا ونقاطِ ضعفها فتركيا لا تقول «ما هي عيوبي؟ لماذا لا أُصْلح من شأن اقتصادي؟ لماذا لا أَحلُّ مشكلتي المتعلقةَ بحقوق الإنسان؟» بل تقول بدلاً من ذلك إنّ الغرب **هو** الذي يفتعل هذه المشكلات كي يقسّم البلادَ ثمة دائمًا بؤرٌ خارجيةٌ متحدةٌ فيما بينها، تمارس الشرَّ من أجل الشرّ.

❖ ❖ ❖

لكنّي أَعْرف في المقابل أنّني أصبح، من حين إلى آخر، موضوعًا لأفكارٍ تآمرية من هذا النوع. أَسمعُ مثلاً مَنْ يقولون إنّ كتبي أو أفكاري هي نتاجُ ما تبنّاه القوى الخارجيةُ داخل تركيا؛ كما أسمع الفكرةَ القائلةَ بأنني أشوّه الثقافةَ التركيةَ (التي نشأتُ في فضائها) بتأثيرٍ من القوى الخارجية واسترضاءً لها

مثلُ هذه الأفكار هي، في معناها الحقيقي، نظرياتٌ پارانوئيةٌ، بل مجنونةٌ إذا صحّ التعبير اليساريون السابقون الذين باتوا يقبّلون أيدي شيوخ الجوامع تحوّلوا إلى فاشيين أين منهم القوميون الصرب! تعلّمتُ جيّدًا الاحتكاكَ مع هؤلاء الناس، والتعايشَ معهم أعرف جيّدًا هذه الأصوات إنّ أقوىٰ ما في الپارانويا المغالية ونظريةِ المؤامرة هي أنّه لا يُمْكن نقضُهما. فسوف تقول إنّ فلانًا قال كذا من دون أن تكونَ في حاجةٍ إلى إثبات ذلك. أو تقول مثلاً: «أترى ذلك الرجلَ الذي يشتري علبةَ سجائر مِن البائع؟ إنّه في الحقيقة لا يشتري سجائر، بل يَهْمس في أذن بائع الدخان سرّاً عسكريّاً. أما البائع فهو يتظاهر بفتح زجاجة المياه الغازية، وحقيقةُ الأمر هي أنّه يَنْفخ ذلك السرَّ داخل الزجاجة.» لا حاجة بك إلى إثبات ادّعائك ذاك؛ فكلامُك يتوافق إلى حدٍّ ما مع المشهد، وهو يَنْفع في التعبير عنكَ وعن الإشباعات المنقوصة لديك

في الوقت الحالي كلما وَقَعتِ الدولةُ في حالاتٍ من اليأس والعجز، قامت ببثّ نظريات المؤامرة في الراديو والتليفزيون الرسميَيْن. ومع الأسف يصدِّقها الشعبُ، وينزل الناسُ إلى الشوارع بغوغائيةٍ عدوانيةٍ مقرفة، ويَبْلغ بهم الأمرُ مبلغًا يَقْتلون معه أو يُحْرقون الأعلامَ هذا يخيفني: فنحن نُشْبه صربيا من وجهة النظر هذه في البدء عَزَلَتْ صربيا نفسَها عن كل العالم، معتقدةً أنّ العالم كلَّه يعاديها ـ وهذا ينفع في تجنُّب نقد الذات، وتجنُّبِ رؤيةِ المظالم التي تمارسها يحدث عندنا الشيءُ نفسُه تمامًا. في مرحلة ثانية كان لسانُ حال الصرب يقول «العالم بأسره يعادينا بطبيعة الحال لقد اتّحد المسلمون والكاثوليك ليبيدوا الأرثوذكسَ في البلقان. هيّا إلى السلاح أيها الرفاق!» وراحوا يَقْتلون ويَذْبحون من غيرِ تبكيتِ ضمير. فبفعل الخوف والاضطراب اللذيْن سيطرا عليهم، اعتقدوا أنّهم على حقّ، وأنّ الشر يتربّص بهم. نحن بدَوْرنا نقترب من هذه الحالة. فلكي تصبح هذه الفظاعةُ فعّالةً، ينبغي الابتعادُ عن النقد العقلاني للعالم المتمدّن.

❖ ❖ ❖

من أكثرِ ما نَسْمعه في تركيا اليوم «لقد اتّضح أنّ العالمَ المتمدّن كذبة، والقانونَ الدولي كذبة! إذن هم أشرارٌ إلى هذا الحدّ! حسنًا، لنصبحْ أشرارًا بدورنا!»

أقول بكلّ أسف إنّ الإنسان الطيب يبقى طيّبًا ولن يقترف الشرَّ. وحتى إذا حرّضتْه الدولةُ والإعلامُ الموالي لها، فإنّه سوف يتوقّف عند حدٍّ معين